المفهوم السوسيولوجي
مقاربة نقدية لبعض أبرز التعاريف الغربية المعاصرة

د. مرزوقي بدر الدين
جامعة وهران 1, احمد بن بله

ملخص:

لاريب أن مختلف تعريفات علم الاجتماع (السوسيولوجيا) وحتى بعض تلك المتقدمة منها في مقاربتها المنهجية لم تتأثر بالمدلول اللاتيني أو الإغريقي فحسب بل تأثرت أيضا بصفة شعورية أو لاشعورية بالمعتقدات و المذاهب الفلسفية والسياسية التي تعارضت – و لا زالت تتعارض– وبدرجات متفاوتة من الناحية الإبستيمولوجية، خاصة عند تحديدها و تفسيرها لمعنى "المجتمع" أو "الحقيقة الاجتماعية" في إطار نزعات فلسفية و سوسيولوجية وضعية متعالمة الأمر الذي ساهم بصفة مباشرة أو غير مباشرة في عملية طمس معالم كثيرة للحقيقة الاجتماعية نفسها في المكان وفي الزمان.

الكلمات المفتاحية:

السوسيولوجيا، الظواهر الاجتماعية، العلاقات الاجتماعية، الإيديولوجيا.

مقدمة :

ليس ثمة شك في أن غير المتخصصين في علم الاجتماع وحتى أولئك الذين يبدون اهتماما عاما أو خاصا بالظواهر أو المشكلات الاجتماعية، لديهم فكرة قد تختلف في درجة وضوحها أو غموضها عن موضوع أو مواضيع هذا العلم، لكن قد يكون من الصعوبة بمكان أن يقدموا إجابة كافية عن التساؤلات الابستيمولوجية المطروحة حول ماهية علم الاجتماع، وقد يعتقد هؤلاء وأولئك أنه من السهولة بمكان أن يقدم المتخصصون إجابات حاسمة عنها. الواقع، يكشف على أن تعريف علم الاجتماع في حد ذاته، يطرح إشكالات إبستيمولوجية لازال بعضها يعترض حتى المتخصصين أنفسهم، وعليه فإن التساؤلات (القلق الابستيمولوجي) التي لازالت تثار- رغم مساهمات العديد من علماء الاجتماع نظريا وميدانيا- تمس بصفة مباشرة أو غير مباشرة وفي معظم مقارباتها النقدية أو المقارنة تعاريف علم الاجتماع في حد ذاتها، بل والأكثر أهمية من ذلك الأسباب والدوافع الكامنة أو المعلنة المرتبطة بهذا بالتباين "المعترف به " سواء أكان بصفة شعورية أو غير شعورية، من قبل المتخصصين حول تعاريفهم وتصوراتهم لبنية ووظيفة علم الاجتماع في عملية تحليل الظواهر أو المشكلات الاجتماعية، ومن ثم تصبح الإشكالية الرئيسة المطروحة في هذا السياق الابستيمولوجي هي كالتالي:

كيف صاغت بعض أبرز المقاربات المفاهيمية المعاصرة مفهوم السوسيولوجيا؟، وكيف تجلت بعض مفارقاتها بمقارنتها مع بعضها من الناحية الابستيمولوجية، خاصة على مستوى بعض مناحي التأصيل المنهجي والإيديولوجي في الفكر السوسيولوجي المعاصر.؟

المبحث الأول: مفهوم علم الإجتماع (السوسيولوجيا)

لو تأملنا من الناحية اللغوية في الشطر الأول من كلمة Sociologie الفرنسية أو Sociology الإنكليزية وهو Socio لوجدنا أنه مشتق في اللغة اللاتينية من الجذر Socius بمعنى "رابطة" أو" مجتمع"، أما الشطر الثاني المتمثل في logie الفرنسية أوlogy الإنكليزية فهو يعني في اللغة اليونانية العلم / المنطق/ الدراسة المتعمقة، وهذا ما جعل العديد من علماء الاجتماع البارزين في الغرب يعتمدون في منتصف القرن العشرين الترجمة الحرفية في مدلولها اللاتيني في تعريفهم لعلم الاجتماع حيث أشاروا إلى أنه "علم المجتمع" أو "علم الدراسة العلمية للمجتمع"، علما بأن مصطلح "مجتمع"(Society/Société) لازال يثير هو في حد ذاته إشكالات ابستيمولوجية نظرا للتنوع الثقافي و الحضاري السائد ما بين المجتمعات وحتى داخل المجتمع الواحد، وآثار ذلك على الاتجاهات و المواقف العلمية و المعرفية تجاه "السوسيولوجيا" أو "المجتمع" أوهما معا.

سنحاول في هذا الإطار الابستيمولوجي اختيار عينة لأبرز التعريفات الشائعة في مؤلفات كلاسيكية حديثة ومعاصرة، منشورة على نطاق عالمي، وهذا تحقيقا لهدفين منهجيين اثنين: يتمثل الهدف الأول في محاولة الإحاطة (النسبية) بالوضع الراهن وهذا من شأنه التمهيد في معالجة مشكلة التعريف، قدر ما تسمح به إمكاناتنا المعرفية

والمنهجية، بينما يتمثل الهدف الثاني في السعي إلى استنباط بعض أوجه الاختلاف، ومن ثم محاولة اقتراح تفسير عقلاني، تمهيدا لتوضيح العلاقة الجدلية بين علم الاجتماع والعلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى، وفي هذا الإطار المعرفي، يمكن ذكر- على سبيل المثال لا الحصر- بعض أبرز من اشتهروا بتعاريفهم في الغرب كالتالي:

- هنري جيد نجز (H. Giddings) حيث عرف علم الاجتماع بأنه "الدراسة العلمية للمجتمع." (The scientific study of society) .
- إدوارد روس (E.Ross) وقد عرفه بأنه "علم الظواهر الاجتماعية."
- ألبيون سمول (A.Small) ذهب إلى أنه "علم العملية الاجتماعية".
- روبرت ماكيفر و بيج (R.Mc iver and CH. page) يعرفانه بأنه " علم الاجتماع هو العلم الذي يدور موضوعه حول الروابط الاجتماعية وشبكة العلاقات التي نسميها المجتمع".
- فرشيلد (H.P.Fairchid) يرى بأنه " دراسة الإنسان وبيئته الإنسانية في علاقتهما ببعضهما البعض".
- وليم أغبرن و م. نمكوف (W.Ogburn and M.Nimkoff) فقد ذهبا إلى أنه: "العلم الذي يهتم بدراسة الحياة الاجتماعية للإنسان وعلاقتها بعوامل أربعة هي الثقافة، البيئة الطبيعية، الوراثة والجماعة".
- موريس جنزبرج (M. Ginsberg) حيث رأى أن علم الإجتماع هو "دراسة التفاعلات والعلاقات الإنسانية، ظروفها وآثارها."

)- رونيه مونييه (R. Mounier) حيث ذهب في أول محاضرة له في علم الاجتماع في جامعة الجزائر عام 1920 معرفا السوسيولوجيا بقوله: "أطلق اسم سوسيولوجي على الدراسة الوصفية المقارنة التفسيرية للمجتمعات الإنسانية حسب ما تسمح به مشاهدتها في الزمان والمكان".

- يمكن أن نضيف إلى هذه التعريفات مجموعة أخرى متنوعة من التعاريف العربية اجتهد أصحابها أسوة بعلماء الاجتماع، خاصة الأنكلوسكسونيين منهم، نتيجة تأثرهم وبدرجات متفاوتة بالسوسيولوجيا الأمريكية، الوظيفية أو الأمبيريقية أوهما معا، ومن ثم جاءت في معظمها بما لا يخرج عن اعتبارها أن علم الاجتماع أو السوسيولوجيا، علم اهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية أو النظم الاجتماعية أو الانسانية في علاقتها بالبيئة والمجتمع والثقافة أو الحضارة، هذا على سبيل المثال لا الحصر.[1]

يمكننا أن نلخص أبرز العناصر الأساسية التي تضمنتها التعاريف السابقة على النحو التالي:

- الدراسة العلمية للمجتمع.
- الاهتمام بالظواهر الاجتماعية.
- معرفة العمليات الاجتماعية معرفة علمية.

[1] - لطفي عبد الحميد، علم الاجتماع، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص ص 30-32، وللاستزادة حول التعريف بعلم الاجتماع، راجع: ص ص 21-32.

- تحليل الروابط الاجتماعية وشبكة العلاقات الاجتماعية.
- دراسة التفاعل الإنساني المتبادل في إطار تأثيرات كل من الوراثة والبيئة الطبيعية والاجتماعية والحضارية.
- يعكس أثر التفاعلات وإشراطاتها الزمكانية.
- الاهتمام بالمجتمعات الإنسانية عبر استخدام المنهج الوصفي المقارن والتفسيري في إطار الملاحظة الزمكانية المتاحة.

في الواقع، عند التدقيق الابستيمولوجي في مفاهيم ومصطلحات هذه التعاريف نستنبط مجموعة من الملاحظات العامة يمكن اختصارها في النقاط التالية:

1- تتميز معظم هذه التعاريف بقصرها وسطحية بعضها مما يساهم في إضعاف بل وافتقادها لقوتها الابستيمولوجية.

2- يغلب عليها الرؤية المركزية الغربية، وتحديدا المركزية الأنكلوسكسونية.

3- هناك خلط واضح في معظمها ما بين السوسيولوجيا و بعض العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى.

4- احتكار معظمها في دراستها "العلمية" للمجتمع أو المجتمعات الإنسانية التفسير السوسيولوجي وكأنه آخر تفسير متقدم بالمقارنة مع التفاسير العلمية المرتبطة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى.

5- ادعاؤها الشمولية والموضوعية والواقعية في التفسير رغم أن مثل هذه العناصر المنهجية لا زالت محل جدل واسع داخل البيئة السوسيولوجية الغربية نفسها، خاصة مع تطور الدراسات النقدية المقارنة.

المبحث الثاني: المدخل الإبستيمولوجي للتعاريف السابقة

مما تقدم يتضح لنا أن اختلاف تعاريف علم الاجتماع أو السوسيولوجيا يمكن حصره عموما في بعض معالمه على الأقل ضمن نقطتين أساسيتين هما:

أولا: خلاف أكثر أو أقل وضوحا حول طبيعة العلم وخصائصه.

ثانيا: خلاف أكثر أو أقل وضوحا أيضا حول المقومات الأساسية في بناء المجتمع، ومن ثم الوحدة الاجتماعية الموضوعية في عملية التفسير أو المقارنة.

لا شك أن خلفيات هذا التباين أو التفاوت عند التحليل النقدي نكتشف أنه يستند إلى سببين موضوعيين، يمكن تلخيصهما كالتالي:

- يتمثل السبب الأول في ذلك الموقف النظري أو الفكري (الإيديولوجي) الذي يتكئ عليه هذا التعريف أو ذاك، وهذا نظرا إلى أن علم الاجتماع أو السوسيولوجيا شأنه شأن العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى، لا يستند إلى موقف نظري موحد، يتقاسمه كافة المشتغلين به سواء أكانوا متمرسين أو مبتدئين، بل هو في الواقع مبني على مواقف نظرية وفكرية متعددة تتفاوت في تقاربها أو تباعدها حتى وإن صدرت أحيانا عن مدرسة سوسيولوجية واحدة، ونقصد بهذه المواقف والاتجاهات، النظرية أو الإيديولوجيا التي يتبناها بصفة شعورية أو غير شعورية باحث أو عالم أو متخصص معين، ذلك أن علم الاجتماع أو السوسيولوجيا يرتبط ارتباطا وثيقا بالواقع الاجتماعي (بيئته الثقافية والحضارية)، بوصفه موضوع حقل دراسته النظرية أو الميدانية، وحيث أن المشتغلين به هم جزء لا يتجزأ من هذا الواقع الاجتماعي فإنه من المنطقي بمكان أن تساهم أوضاعهم التربوية واتجاهاتهم الفكرية والفلسفية والسياسية وانتماءاتهم الطبقية وحراكهم الجغرافي والمهني في عملية تباين المواقف النظرية التي يتبنونها أو التصورات والرؤى النظرية التي قد يستلهمونها في دراستهم الجامعية أو البحثية النظرية أو الميدانية بصفة مباشرة أو غير مباشرة. في الواقع لازالت هذه المسألة الإيديولوجية تطرح وبدرجات متفاوتة من حيث الأهمية والخطورة في الوقت ذاته إشكالية القيم في العلوم الاجتماعية والإنسانية بشكل عام.

- يتمثل السبب الثاني في ذلك التناقض المنطقي الذي يكاد يكون مفارقة في معظم التعاريف السابقة باعتبار أنها تفتقر بشكل أو بآخر، وبدرجة قد تزيد أو قد تنقص إلى بعض أهم الشروط المنطقية التي ينبغي أن تتوفر في أي تعريف علمي، فمثلا نجد أن هذه التعريفات في جملتها توحي بأنها جامعة لكنها غير مانعة، أي أنها تجمع في حدها كافة العناصر والقضايا والمشكلات التي تدخل بصفة مباشرة أو غير مباشرة في إطار دراسة حقل علم الاجتماع أو السوسيولوجيا وبذلك فهي لا تميز حقل دراسته بوصفه علما ذو خصوصية مستقلة، بل إنها من الناحية المنطقية، تخلط بين هذا العلم وغيره من الفروع المعرفية الأخرى كما سبق ذكره.[1]

[1] - عودة محمود، أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، بيروت، ب.ت.، ص 20.

المبحث الثالث:محاولة استدراك بعض التعاريف بعض النقائص الابستيمولوجية

لقد اجتهدت بعض التعاريف اللاحقة من خلال الفروض التي أمكن تحقيقها عن طريق الدراسات والمقاربات العلمية التجريبية في السوسيولوجيا للوصول (نسبيا) إلى مرحلة التوقع أو التنبؤ رغم صعوبتها، حيث تمكنت بعض البحوث السوسيولوجية في الواقع من الكشف عن جملة من معاملات الارتباطية (Les coefficient de corrélations) التي تتعلق بظواهر اجتماعية، تمت دراستها، حيث اقترب بعضها من الوصول إلى مرحلة "التقنين" نتيجة قوة الاحتمال مثل ذلك الارتباط المعروف بصفة عامة ما بين مستوى التعليم ومعدل الإنجاب أو المواليد، أو بين المستوى الاقتصادي وبين ممارسة وسائل تنظيم الأسرة، أو بين عدد من المتغيرات المتعلقة بالأسرة وبين ظاهرة انحراف أو جنوح الأحداث، أو ظاهرة أخرى كالطلاق أو إصابات العمل، هذا ما جعل عالم السوسيولوجيا الروسي الشهير ج.أوزيبوف (G.Osipov) يعرف علم السوسيولوجيا على أنها: " نسق للقوانين الاجتماعية، أي القوانين التي تحكم المجتمع فقط"، أي أن هدف السوسيولوجيا هو السعي الحثيث للكشف عن القواعد أو القوانين التي تتحكم في الظواهر الاجتماعية، بعيدا عن علم الفلسفة الذي يهتم بالوجود الإنساني ككل حيث يوضح هذا المعنى بقوله: " الفلسفة علم يعالج القوانين العامة التي تحكم الطبيعة والمجتمع والفكر الإنساني بينما يقتصر علم الاجتماع على القوانين التي تحكم المجتمع فقط".

ويتفق مع هذا الاتجاه الجديد عالم السوسيولوجيا التشيكوسلوفاكي الشهير زدنك أولرخ (Z.Ullrich) حينما عرف السوسيولوجيا لطلبته في معهد العلوم الاجتماعية بجامعة الاسكندرية في الخمسينيات من القرن المنصرم على أنها: " علم موضوعي، تجريبي نظري، يبحث من وجهة نظر عامة في تفكير الإنسان وسلوكه وإنتاجه من ناحية صفاته الشائعة وانتظام حدوثها في حياة الناس معا".

يمكن أن نلخص ما جاء من مفاهيم ومواقف ومعايير في هذا التعريف المتميز في النقاط التالية:

1- **إنه علم موضوعي**، أي بعيد عن كل ما يرتبط بالتفكير "المثالي" (الغربي) فلا يجب أن لا نتعصب لأي جهة دينية كانت أم سياسية أم اثنية أم جنسية أو غيرها من العصبيات فالحب أو الكره كثيرا ما كانا أسوء رفيقين عند ملاحظة الظواهر الاجتماعية في المكان والزمان.

2- **تجريبي**، بمعنى أن هناك صلة وثيقة بين التجريب والموضوعية كون التجريب يظل امتدادا للموضوعية.

3- **نظري**، ويقصد من ورائه اكتساب معرفة علمية دون أي اعتبار للتطبيق العملي لهذه الحقائق الاجتماعية في انتظام حدوثها في المجتمع، فالتطبيق العملي ليس من اختصاص الباحث في السوسيولوجيا وإنما يظل من صلاحيات علوم أخرى اصطلح على تسميتها بالعلوم الاجتماعية التطبيقية (social applied sciences) ، والتي تتميز عادة بحكم اختصاصها باتباع سياسات معينة ترتبط بما يسمى بالخدمة الاجتماعية، والتشريع والسياسة والترفيه والتنمية، فهي بالنسبة للسوسيولوجيا كالتكنولوجيا بالنسبة إلى العلم.

4- **أما** المقصود **بوجهة النظر العامة**، فهو لتمييزه عن العلوم الاجتماعية الأخرى.

5- وأما المقصود من قوله " ..**صفاتها الشائعة وانتظام حدوثها** .."، تعني الثبات (الناحية الاستاتيكية) في حين التردد وانتظام الحدوث فيعني الناحية الحركية (الديناميكية) أو ما اصطلح على تسميته في العلوم الاجتماعية والإنسانية التغير الاجتماعي (social change)، وعليه يتضح من هذا التعريف الشهيرعلى سبيل المثال لا الحصر، أن موضوع السوسيولوجيا يتأرجح في دراسته للظواهر الاجتماعية ما بين حالتي الثبات والحركية الاجتماعية لا الفردية.[1]

في الواقع، يأتي تعريف العلامة الأمريكي الشهير بيتريم سوروكين (Pitrim Sorokin)

ليقلص أكثر فأكثر من تلك الاختلالات المنهجية المسجلة على التعاريف السابقة الذكر،حيث يعرف السوسيولوجيا في كتابه الكلاسيكي الشهير "المجتمع ، الثقافة و الشخصية" بأنها :" دراسة الخصائص العامة لكل صنوف الظواهر الاجتماعية و دراسة العلاقات المتبادلة بين هذه الظواهر." [2] ، وتعريف العلامة سوروكين هذا للسوسيولوجيا، لازال يحضى بقبول واسع لدى غالبية الباحثين في السوسيولوجيا الغربية باعتباره تعريفا "جامعا" لمختلف الآراء و الاتجاهات السوسيولوجية. كما يأتي تعريف العلامة الألماني ماكس فيبر (Max Weber) في نفس السياق ولكن من زاوية منهجية و إيديولوجية مختلفة مشكلا قفزة نوعية في عملية الفهم التفسيري للفعل الاجتماعي حيث يؤكد على أن السوسيولوجيا هي:" ..علم يحاول الفهم عبر تأويل النشاط الاجتماعي ومن ثم تقديم تفسير سببي لمجراه و نتائجه.."[3] .

يعتبر معظم الباحثين المعاصرين في السوسيولوجيا أن هذا التعريف لا زال يحتفظ بحيويته المنهجية كونه تعريف شامل و مفسر في آن واحد ، فهو شامل لأنه يكشف عن المنطق المتضمن أو العقلانية في الفرد و السلوك الجمعي ، و مفسرا لأنه يضع الصورالجزئية للسلوك من خلال المضمونات التي يغطيها المعنى. وفي مثل هذا الإطار الابستيمولوجي، يقترح أيضا العلامة هـ.جوهانسون (H.Johanson) تعريفا متقدما، حيث يعرف السوسيولوجيا بأنها:" العلم الذي يتناول بالدراسة الجماعات الاجتماعية من حيث صور أو نماذج تنظيمها الداخلي، و العمليات التي تميل إلى استمرار أو تغيير هذه الصورة التنظيمية و العلاقات بين الجماعات." على أن ذلك كله ينبغي أن يتم – في رأي جوهانسون– على ضوء فهم " الفعل الاجتماعي" الذي يسعى و يتحرك داخل الجماعة لبلوغ أهداف محددة أو غايات معينة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن " الثقافة" تلعب دورا مؤثرا في عملية تحديد أو تعديل مسارات تلك الأهداف أو الغايات.

---

[1] - لطفي عبد الحميد، المرجع نفسه، ص ص 32-36. للاستزادة حول التأمل السوسيولوجي النقدي كمشروع تجاوز أو تخفيف من الأزمة الإبيستيمولوجية السوسيولوجية، راجع على سبيل المثال المقاربة القيمية لـ: الحسيني السيد، نحو نظرية اجتماعية نقدية، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، ص ص 203-220

2-Sorokin Pitrim, Society,culture and personality,Harper eds.,New York,1947,p.17.

خاتمة

هكذا يتضح من خلال هذه التعاريف الأخيرة المتميزة للسوسيولوجيا أنه يمكن الجمع بين مختلف وجهات النظر تلك على اعتبار أن السوسيولوجيا تهتم أساسا بدراسة العلاقة الجدلية بين مختلف أنواع الظواهر الاجتماعية من خلال ذلك التفاعل الاجتماعي المعقد الذي يوجد هذه العلاقة والذي يتم في الجماعة أو في أي وحدة أصغر منها (العلاقة الزوجية مثلا) ، حيث تتخذ مثل هذه العلاقة أنماطا متعددة تحددها الثقافة، و يدوم ذلك التفاعل المعقد ليحدد بصفة مباشرة أو غير مباشرة مختلف صور البناء الاجتماعي و يتبلور في بوثقة الثقافة ليشكل طابع الشخصية. على هذا الأساس اعتبر معظم الباحثين في الظواهر والمشكلات السوسيولوجية أن التفاعل الإنساني أو بعبارة عزيزة على العلامة الألماني الشهير ماكس فيبر "الفعل الاجتماعي" المعقد هو الذي يرسم في النهاية بحدوده وشروطه و نتائجه ومرجعياته المتعددة الصورة الإنسانية لمفهوم السوسيولوجيا في المنظور الغربي على الأقل.